عمران دمشق

"قراها"

دعا الاتصال بين دمشق وقراها الى ان سكن اكثرها بعض الامويين منذ الفتح فاصبحت كأنها حارات لدمشق او مصايف لاعيانها وتوفرت فيها مرافق الحياة حتى قال ابن بطوطة بعد كلامه على عمران المزة وذكر من نُسب اليها من العلماء والفضلاء ان في اكثر قرى دمشق الحمامات والمساجد الجامعة والاسواق وسكانها كاهل الحاضرة في مناحيهم

ولا بدع اذا اخرجت هذه القرى مئات من العلماء فقد عدّد ياقوت في معجم البلدان الموجود في الربع الاول من القرن السابع للهجرة اكثر القرى والامصار التي درست في بلاد الاسلام واتى بما قيل فيها من الاشعار وما نسب اليها من الوقائع التاريخية وحملة العلم والادب وساق في ثلاث صفحات من كتابه علماء قرية واحدة اسمها (صنعاء دمشق) وهي دارسة اليوم لا يعرف اسمها ولا رسمها . فسقيًا لذاك العمران مدعيًا لتلك الازمان . وهاك اسماء الضياع الدوارس

(بيت لهيا) كانت قرية مشهورة في الغوطة والصحيح بيت الآلهة . اكثر الشعراء ذكرها ونسب اليها خلق من اهل الرواية والدراية والنسبة اليها بتلهي وكانت عامرة في اوائل القرن الحادي عشر ذُكر في ترجمة عبد اللطيف المحبي المتوفى سنة ١٠٣٢ انه اقتنى بساتين فيها ووقفها

(بيت الآبار) يضاف اليها كورة من غوطة دمشق فيها عدة قرى خرج منها غير واحد من رواة العلم

(بيت ارانس) من قرى الغوطة بها قبر ابي مرثد وثار بن الحُصين من الصحابة

(بيت سابا) قال ابن عساكر ان هشام بن يزيد بن محمد بن عبدالله بن يزيد بن معاوية بن ابي سفيان الاموي كان يسكن بيت سابا من اقليم بيت الآبار عند جرمانس وكان لجده يزيد بن معاوية

(ارزونا) من قرى دمشق قرب عربيل

(عالقين) قال صاحب فوات الوفيات انها قرية بظاهر دمشق مات فيها ابو بكر بن ايوب اخو السلطان صلاح الدين سنة ٦١٥ هـ ونقل منها الى دمشق ودُفن بالقلعة ثاني يوم وفاته ثم نقل الى مدرسته المعروفة به

(الجامع) من قرى الغوطة سكنها قوم من بني امية

(طرميس) قرية في الغوطة نسب اليها بعض اهل الرواية ممَّن ورد ذكرهم في تاريخ دمشق

(حجرا) من قراها يُنسب اليها كثير من العلماء وحجيرا المعروفة اليوم هي غيرها

(دقانية) خرج منها اناس من اهل العلم

(دير ابان) قرب قرحتاء سكنهُ بعض الامويين

(دير بَوَنَّا) بجانب الغوطة في انزه مكان قال ياقوت وهو من اقدم ابنية النصارى يقال انهُ بني على عهد المسيح عليهِ السلام او بعدهُ بقليل وهو صغير ورهبانهُ قليلون اجتاز بهِ الوليد بن يزيد فرأى حسنهُ فاقام بهِ يوماً في لهو ومجون وشرب ونظم في وصفهِ ابياتاً خلاعية

(دير محمد) قال ابن عساكر كان عمر بن عبد العزيز يراهُ اهلاً للخلافة واليهِ تنسب المحمديات التي فوق الارزة ودير محمد الذي عند النيحة من اقليم بيت الآبار

(دير هند) من قرى دمشق سكنهُ بعض الأمويين

(قصر امّ حكيم) برج الصُّفر من ارض دمشق منسوب الى ام حكيم بنت يحيى ويقال بنت يوسف بن يحيى بن الحكم بن العاص بن أُميّة وامها زينب بنت عبد الرحمن بن الحرث بن هشام بن عبد الملك فولدت لهُ يزيد بن هشام واليها ايضاً ينسب سوق ام حكيم بدمشق وهو سوق القلاّئين قالهُ ياقوت

(قنية) قرية كانت مقابل الباب الصغير من دمشق منها جماعة من العلماء

(الميطور) من قرى دمشق وفيها يقول عرقلة

وكم بين اكناف الثغور متيم كئيب غزتهُ اعين وثغورُ
وكم ليلة بالماطرون قطعتها ويوم الى الميطور وهو مطيرُ

(يلدان) كانت من اقليم بانياس سكنها عمر بن القاسم الاموي ذكرهُ ابن ابي العجائز في حديث ذي القرنين لما عمَّر دمشق انهُ نزل من عقبة دُمَّر وصار حتى نزل في موضع القرية المعروفة ببلدا من دمشق على ثلاثة اميال. كذا في الحديث بغير نون قال ياقوت لا ادري اهي واحد ام اثنان . قلت اذا كانت بلدا بالمفرد فهي قرية معروفة لهذا العهد

ذاك بعض ما وقفت عليهِ في تضاعيف الكتب من اسماء قرى الغوطة الداثرة اليوم ويذهب بعض الماحكين الى ان هذه القرى ما برحت في لوح الوجود بل تغيَّرت اسماؤها فقط فان كان الامر كذلك فلمَ لم يتغير غيرها من الاسماء التي ما برحت بحالها منذ القرون المتوسطة ولم يطرأ عليها الاَّ بعض التحريف من السن العامة فقط . وهاك الآن نموذجاً من ابيات لشاعر الشام في عصرهِ احمد بن منير الطرابلسي المتوفى سنة ٥٤٨ تفهم منها باقي القرى من داثرها

حيّ الديار على علياء جيرون مهوى الهوى ومغاني الخرّد العين
مرادَ لهويَ اذ كفي مصرّفة اعنّةُ العيس في فيح المياديني
بالنيربين فمقرى فالسرير فحمّ رايا فجوّ حواشي جسر جسرين
فالقصر فالمرج فالميدان فالشرف الأ على فسطرا فجرمانا فقلبين
فالماطرون فداريا فجارتها فآبل فمغاني دير قانون
تلك المنازل لاوادي الاراك ولا رمل المصلّى ولا اثلات يبرين

"هندستها"

بُنيت مدينة دمشق وسط وادٍ عميق اشبهَ بواحة يكثر فيها العفن والرطوبات ويشتدّ فيها الحر والبرد خصوصاً في هذه القرون الاخيرة. والبنيان متراكم والطرق ضيقة الداخل والخارج وهي يقبور اموات اليق منها باحياء احياء. تكاد الشمس والهواء لا ينفذان الى دورها وطرقها لارتفاع الجدران والسطوح ولولا الشارعان اللذان أنشئا حديثاً الاول سوق مدحت باشا والثاني سوق الحميدية لكانت دمشق على ما هي عليهِ من الطول والعرض وسكان يقربون الآن من مئتي الف نسمة تشبهُ قرية كبيرة حقيرة. دور عمرت بالطوب والتراب داخلها كئيب بخارجها واكوام من القمامات وبجار بن القاذورات لو دخلها الطبيعيون لقالوا بقصر اعمار بن يسكنونها لولا ان العادة طبيعة خامسة. لا جرم انهُ اتت على هذه الحاضرة ازمان من الفوضى ضاعت فيها الهندسة فصار الناس يبنون مساكنهم حيث شاءوا وعلى اي طرز احبوا. يقول بعضهم ان بناء دمشق على هذا النحو والسور يحرمها في محيطها كان من موجبات بقائها حتى الآن فدفع مركزها عنها كثيراً من هجمات المهاجمين في القرون المتوسطة وما كان المتمرنون من اهلها يعدمون زمن السلم قصوراً في ارباضها يرتعون بها ويصطافون ويتربعون فيها ويرتاحون حتى اذا تواترت الغارات وفشت الاضطهادات في القرون الحديثة امسى ما في سفح جبلها من المصايف والمرابع وفي ضاحيتها من الضياع والمزارع خراباً يباباً

ذكر شيخ الربوة الكاتب الدمشقي وكلامهُ احسن مأخذ في هذا الباب ان دمشق كانت مقسومة ثلاث قسمات قسم مبثوث العمارة في بقعتها لو جمع لكان مدينة عظيمة ما بين جوامع وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات واسواق ومدارس وتربٍ وجوامع ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الابهات وهذا الذي ذكرناهُ لا يوجد بغيرها اصلاً. والقسم الثاني تحت الارض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقني وجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الارض كلها حتى لو حفر الانسان اينما حفر من ارضها وجد مجاري الماء تحتهُ

مشتبكة طبقات بينة و يسرة شيئاً فوق شيء . والقسم الثالث مسوّرها وما فيهِ وحولهُ من المعمور وكانما هي في وصفها طائر ابيض في درج اخضر يترشّف ما يصل اليهِ من الماء اولاً فاولاً

واكّد من زار خرائب تدمر وعرف هندسة دمشق القديمة ان تينك الحاضرتين كانتا على نسق واحد في هندستهما فقد كان يخرق دمشق من الشرق الى الغرب شارع عظيم مستقيم طولهُ ١٦٠٠ متر وعلى جانبيهِ رواقان من اعمدة حجرية حائلة هي اليوم مطمورة تعلوها الحوانيت والدور وقد ظهرت غير مرّة اثناء الحفر

والناظر الى ابوابها يتصور مساحتها وهندستها في السابق قال ابن عساكر " ان الباب القبلي المعروف بباب الصغير سُمي بذلك لانهُ اصغر ابوابها حين بُنيت . باب كيسان ينسب الى كيسان مولى معاوية وذُكر انهُ منسوب الى كيسان مولى بشر بن عمارة وهو الآن مسدود . الباب الشرقي سمي بذلك لانهُ شرقي البلد وكان ثلاثة ابواب باب كبير في الوسط وبابان صغيران من جانبيهِ سُدَّ منهما الكبير والباب الصغير الآن من قبليهِ وبقي الصغير الشمالي . باب توما من شمالي البلد يُنسب الى عظيم من عظماء الروم اسمهُ توما وكانت لهُ على بابهِ كنيسة جُعلت بعدُ مسجداً . باب الجنيق من الشمال ايضاً منسوب الى محلة الجنيق وهي محلة كبيرة كانت بها كنيسة فجعلت بعد مسجداً وهو الآن (في القرن السادس) مسدود . باب السلامة من شمالي البلد ايضاً سمي بذلك تفاؤلاً لانهُ لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيتهِ لما دونهُ من الاشجار والانهار . باب الفراديس من شماليهِ منسوب الى محلة كانت خارج المدينة تسمى الفراديس وهي الآن خراب وكان للفراديس باب آخر عند باب السلامة فسُدَّ والفراديس بلغة اهل الروم البساتين . باب الفرج من شماليهِ ايضاً محدث احدثهُ الملك العادل نور الدين وسماهُ بهذا الاسم تفاؤلاً لما يوجد من الفرج بفتحهِ وكان بقربهِ باب يُسمى باب العمارة فُتح عند عمارة القلعة ثم سدَّ بعدُ واثرهُ باقٍ في السور . باب الحديد من شمالهِ ايضاً هو الآن خاص بالقلعة التي أُحدثت غربي البلد في دولة الاتراك سمي بذلك لانهُ كلهُ حديد . باب الجنان من غربي البلد سمي بذلك لما يليهِ من الجنان وهي البساتين . باب الجابية لان الخارج اليها يخرج منهُ لكونهِ مما يليها وكانت ثلاثة ابواب الاوسط منها كبير ومن جانبيهِ بابان صغيران على مثال باب شرقي وكان من كل باب سوق ممتد من باب الجابية الى باب شرقي كان الاوسط من الاسواق للناس والسوقان الباقيان يجوز منهما الركاب حتى انهُ كان لا يلتقي فيهما راكبان (كما هو الحال في اسواق الغرب اليوم) فسدَّ الباب الكبير والشمالي منهما وبقي القبلي الى الآن وفي السور ابواب صغار غير ما ذكر تفتح عند الحاجة منها باب في

حارة الخاطب يعرف بباب ابن اسماعيل وباب في المدبغة "

وذكر صاحب محاسن الشام عند كلامه على ابواب المدينة باب السرّ فقال " انما سمي بذلك لكونه يفتح الى القلعة وكان الاتراك ينزلون منهُ سرًّا ويطلعون منهُ ويجوز الخارج على جسرين من خشب تحت الخندق المحيط بالقلعة بنيف عمقهُ على مائة ذراع بالعمل بهِ يخزّن الماء وينبت البوص وغير ذلك وهو غير خندق المدينة . واصطلح في آخر دولة ابن قلاوون ان يصلي من ولي نيابة دمشق عند الباب ركعتين مستقبلاً القبلة بحيث يبقى الباب على يساره ويقف اجناد القلعة وارباب الوظائف والادراك في منازلهم على حسب العادة متجملين بالسلاح الى ان يفرُغ من صلاتهِ ودعائهِ فان أُريد بهِ شر قبض عليهِ ودخلوا بهِ ويقلبون الجسر بينهم وبين اعوانهِ فان الجسر بلوالب وان أُريد بهِ خير اركب في عزّتهِ ووجوه الدولة في جملته الى ان ينزل الى دار العدل التي انشأها نور الدين الشهيد وهي التي تسمى بدار السعادة (سراي المشيرية اليوم) وهي تلي باب السرّ وعلى بابها باب النصر الذي فتحهُ الملك الناصر بن ايوب للمدنية". الى ان قال "وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد مناير على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسويقة بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة واقفلت الابواب يستغني اهل كل باشورة من هذه الابواب بما عندهم وهو مقصد جميل "

هذا واكثر تلك الابواب لم يبرح الى اليوم ماثلاً للعيان غير متداعي البنيان والاركان ولم ينقطع من الالسن ذكرهُ سوى باب كيسان والجنيق والفرج وابن اسماعيل والسرّ والنصر ومنها ما تهدم ولم ينقطع ذكرهُ كباب الصغير وباب الجابية اما السور الذي كانت تتخللهُ تلك الابواب فقد كُتب عليهِ بقلم الحال "سبحان المتفرد بالبقاء" ولا تزال المعاول تشتغل في هدمهِ الى عهدنا هذا ليستعان بحجارتهِ الضخمة المنحوتة ولم يبقَ منهُ الا ما اعجز الهادم هدمهُ لحصانة بنائهِ وامتانهِ

" انهارها "

من يقرأ تاريخ الصدر الاول لا يكاد يرى فرقًا بيناً بين حاجيات الانسان اليوم وأمس كيف لا والبشر مهما تفهقروا لا غنية لهم عن الضروريات ولا يزهدون فيها زهد اهل المشرق كافة بالعاديات والآثار اقول هذا وحق لدمشق ان تغبط لانها سلمت لها انهارها منذ قرون ولم تسطُ عليها الغير . روى ابن عساكر في تاريخ دمشق ان نهر يزيد كان صغيرًا يجري فيهِ شيءٌ يسير يسقي ضيعتين في الغوطة لقوم يقال لهم بتوفرقا ولم يكن لاحد فيهِ شيء غيرهم فماتوا في خلافة معاوية بن ابي سفيان ولم يكن لهم وارث فاخذ معاوية ضياعهم واموالهم فلم يزل كذلك حتى مات معاوية في رجب سنة ستين وولي ابنهُ يزيد فنظر الى ارض واسعة ليس

لها ماء وكان مهندساً فنظر الى النهر فاذا هو صغير فامر بحفره فمنعهُ من ذلك اهل الغوطة ودافعوهُ فلطف بهم الى ان ضمن لهم خراج سنتهم من مالهِ فاجابوهُ الى ذلك فاحتفروا نهراً سعتهُ ستة اشبار في عمق ستة اشبار على ان لهُ ملءَ جنبتيهِ وكان كما شرط لهم . ومات يزيد سنة اربع وستين فلم يزل كذلك حتى استخلف سليمان بن عبد الملك فاقام عندهُ رجل من اهل الذمة يقال لهُ جرجه بن قوا (جرجي بن قدرا) شاهدين يشهدان ان لهُ في النهر قناة تجري الى حمام لهُ بديرهِ فسجل لهُ سليمان بذلك سجلاً واشهد بهِ شهوداً ونسخهُ

" بسم الله الرحمن الرحيم هذا كتاب كتبهُ سليمان بن عبد الملك امير المؤمنين لجرجه بن قوا بثبات قناة في نهر يزيد لما قامت لهُ البينة وفيهِ من الشهود عمر بن عبد العزيز وعبدالله بن الحصين الهمداني ويزيد ابن اسلم وعبدالله بن عبد الملك من اهل الغوطة وذلك يوم الخميس في شهر رمضان سنة ثمان وتسعين واشهد على نفسهِ وكفى بالله شهيداً "

وقلَّ الماء في خلافة سليمان بن عبد الملك حتى لم يبقَ في بردى الاَّ شيء يسير فشكا اهل الغوطة الى سليمان فوجَّه مولاهُ عبيد بن اسلم الى اصل ماء العين ليكروها فبينما هم يكرون فيها اذا هم بباب حديد مشبك يخرج الماء من كوىً فيهِ يسمعون داخلها اضطراب السمك في الماء فكتبوا بذلك الى سليمان فامرهم ان لا يغيروا شيئاً عن اصلهِ فلم يزل كذلك حتى ولي هشام بن عبد الملك فسأل اهل حرستا ماء للشرب لشفاههم في مسجدهم فكلم فاطمة ابنة عبد الملك يعني ابنة عاتكة وعاتكة ابنة يزيد على ان يحفروا نهراً صغيراً الى مساجدهم للشرب لا لغيرهِ وفتح الذي امر بهِ فتراً في فتر مستديراً يجري على قدر شبر من ارتفاع الارض

ثم فصَّل تقسيم الانهار والجداول زمن هشام بن عبد الملك مما لا فائدة في ذكرهِ لفقدان الاصطلاحات التي ذكرها في ميزة الانهار فاعطى الجدول ماء غدقاً والنهر غيضاً وشلاً

وكتب شيخ الربوة في الربع الاول من القرن الثامن نبذة بشأن انهار دمشق لم تتغير الى اليوم اسماؤها واصطلاحاتها فقال ان نهر دمشق ينبعث من مرج الزبداني ومن عين الدولة فوق الزبداني ومن عين الفيجة ومن اعين في طول وادي بردى واصل عين بردى من تحت جبل في مرج الزبداني بجنب قرية يقال لها الضيرة . ثم قال ان عدد بساتين دمشق مائة الف واحد وعشرون الف بستان تسقى بماء واحد (باحصاء رسمي بلغ اليوم عدد حدائق دمشق وكرومها ١٩٣٩) يأتي اليها من ارض الزبداني ومن وادي بردى عين تنحدر من اول الوادي ومن عين الفيجة وينبعث نهراً واحداً يسمى بردى ثم يتفرق سبع فرقات كل فرقة نهر يسمى باسم منها نهر يزيد فتحهُ يزيد بن معاوية فسمي بهِ ونهر ثورة فتحهُ ملك من ملوك الروم اسمهُ ثورة

فسمي بهِ ونهر بلدياس او بانياس فتحهُ بلنياس الحكيم اليوناني فتسمى بهِ ونهر القنوات وكلاهما يجريان الى داخل المدينة و يتفرقان في المصارف والبرك والقني والحمامات والطهارات ونهر مزة منسوب الى قرية تسمى المزة وكان اسمهُ المنزه ثم نهر دارنا وهو سادس النهور وارفعها مجرى وابعدها مقسماً وسابع النهور نهر بردى الجاري في قرارة الوادي ولا يقبل الارتفاع عن مجراه ومنهُ تقسمت الانهار المذكورة . ثم ينقسم من هذه الانهار فرق وجداول وتتفرق منشعبة باراضي الغوطة حتى لا يبقى منها بقعة يمكن وصول الماء اليها الاَّ و يصل و يركبها سقياً لها بحساب وتقسيط معلوم في الليل والنهار بساعات معلومة لا تزيد ولا تنقص ثم يخرج عمود بعد ذلك وينبعث في جهة الشرق و يسقي قرى وضياعاً واراضي مرجية وصحراوية حتى يصب آخرهُ في بحيرة شرقي دمشق بارض عذراء يثبت بها القصب وهذه البحيرة يصب فيها نهر آخر يسمى الاعوج يجتمع عند تحليل الثلج ومن عصارات المياه والمواصي فيكون نهراً كبيراً

هذا وقد كان خطر لاحد ولاة الفيحاء منذ سنين ان يجري قسماً من عين الفيجة قبل اختلاطها ببردى يجعلهُ في قسطل من حديد و يوزّع على احياء المدينة للشرب فقط لان ما ينهال على بردى من قاذورات القرى في طريقهِ يجعل النفوس تعاف ماءه حقيقةً و يضرُّ بالصحة كثيراً لكن هذا التصوّر ذهب ذهاب امس الدابر وكلام الليل يمحوهُ النهار فلن قوماً هم افقر الى الحاجيات منهم الى الكماليات لاحرى بهم ان يقدموا الاهمَّ على المهمّ لو كان لهم حلم وعلم

محمد كردعلي

رواية امينة

الفصل السادس عشر

وقفت عطية هانم امام المرآة بعد ان البستها ثيابها وحلاها وقبلما تجلس على العرش وقالت لي "الحمد لله انتهينا ولم اعد احتاج الى شيء" . وكانت بحليها وحلتها من ابدع ما رأت عيني حسن فتّان وقوام يخجل غصن البان وحلّة زادت جمالها جمالاً وقدها اعتدالاً على رأسها وفي عنقها ومعصميها شموس من الماس تبهر الابصار وعلى وجهها برقع فضي كانهُ الهالة او بخار الماء . فقلت في نفسي اذا رآها نافذ بك ولم يفتن بجمالها فما هو انسان . قلتُ ذلك رغماً عني انفي والحق غلاّب لكني طردتُ هذا الخاطر عن بالي حالما خطر لي وقلتُ لها نعم انتهينا وكل شيء على ما يرام . فقالت قولي لهم اذاً ليأتوا ودعينا نخرج من هنا